النبع الحالم .. وحزن الهزيمة !

بقلم غسان كنفاني

في تقاليد اسبارطة ان يقدم الناس طفلا يذبحه قائد اسبارطي خارج المدينة كي يكون هذا الطفل فداء بطوليا لكل شعبه .. وفي سنة ما حمل الاسبارطي القائد طفلا الى خارج المدينة من اجل ان يقدم دمه شرابا لكبرياء الالهة التي خذلها انسانها فصارت تحاربه ، وحينما التقى الطفل فوق العشب واستل سيفه المسطح التقت عيناه بعيني الطفل فاذا به يحدق اليه ويبتسم ، وهكذا جمد السيف في يد الاسبارطي الخشن ، وامتصته الابتسامة الصافية ، وبدأت تنمو حاسة حزن عميق الى جانب حاسة التضحية البطولية التي آمن بها طوال سنوات من حياة اسبارطة الام .. في لحظة واحدة وجد الانسان الحقيقي من التقاء هاتين الحاستين: الايمان بالتضحية ، والحزن من اجلها ..

« العودة من النبع الحالم » هو هذه القصة بالذات .. ليس طفرة حماس سطحية ، ولكنه فهم انساني ، عميق وحزين وشجاع ، لذلك فان اعطاء المقاييس العادية للديوان خطأ محض .. وعملية دراسية يجب ان تتم كما تمت عملية تكوينه : انفتاح غير محدود على الانسان في قوته وضعفه ، في ايمانه وجحوده ، وفي كل لحظة يتعرض لها احساس هذا الانسان الذي لا يستطيع ان يكون فوق المنبر كل لحظات حياته ، ولا بد له من ان يعيش مع الناس .. ويفهم كيف يعيشون .. وهكذا فان اختياري لهذا الخط في دراسة ديوان « العودة من النبع الحالم » ـ الخط الذي تعبر عنه القصة الاسبارطية تعبيرا كافيا ـ ليس صدفة ... واعتقد ان تجاهل المستوى السلبي في نفسية الانسان ـ اذا اعتبرنا الحزن سلبيا ـ ليس سوى عملية تشويه للمستوى الايجابي في نفسيته ، بل ربما لتكوينه البشري الصحيح . فالمطلوب من الشاعر اليوم الا يكون متحمسا بقدر ما يكون صادقا .

الاحاطة بديوان « العودة من النبع الحالم » للشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي احاطة كاملة تكاد تكون امرا متعذرا ، فهنالك كثير من القضايا تطرح نفسها في البحث كقضايا اساسية ، فمن حيث الاداء تطرح قضية الشعر الحديث نفسها اولا ، وللشاعرة سلمى رأيها في الموضوع والذي عبرت عنه في كثير من مقالاتها النقدية والذي لا مجال لبحثه هنا ، ولكن الاشارة الى ان اللحن الشعري في قصيدتي « المدينة والفجر »و« الشهيد المهجور » يعتبر احسن برهان على كفاءة الشعر الحديث الموسيقية وقدرته التعبيرية اللامحدودة ، اشارة ضرورية . كما ان ادخال النفس الشعبي خلال سياق القصيدة ، والواضح في « منذرون » و«اذرع الكتان » يحتاج لمقال خاص يبرز استيعاب الشاعرة لقضية الشعر ولقضايا الناس معا ، ففي هاتين القصيدتين بصورة خاصة تستعير الشاعرة كلمات الاسى من الشارع نفسه ، وهي لا تقدم في المرتبة حزنا ملونا بالبلاغة ، ولكن حزنا نما خلال زمن طويل في عظام الناس ، واصبحت له تقاليده وكلماته الخاصة.

ان البدء في الحديث عن « العودة من النبع الحالم » من هذه الزوايا سوف يجرنا بعيدا عما قصدنا اليه ، ورغم ذلك فنحن لن نستطيع ان نمر بالحركة الرائعة ـ او المريعة ـ في قصيدة « تحت جناح حرب ذرية » دون توقف ، فالشاعرة تنقل اللحظة بحيوية عنيفة وقاسية ، وهي تضع القارىء امام دوامة الفناء المفاجىء وجها لوجه ، وهذا العمل يقدم للشعر الحديث مؤهلا جديدا .

ولو كان الخط الرئيسي لشعر سلمى شيئا غير الذي اشرنا اليه (الرغبة في التضحية والحزن من اجلها) لو لم يكن هذا ، لكان القلق الذي تعيشه الشاعرة مع كل طليعة القرن .. ولكان البحث عن خلاص من هذا القلق ، وطمأنينة لهذا الخوف .. الا ان هذا القلق ـ رغم كل شيء ـ يشكل جانبا رئيسيا من جوانب الخلفية التي تصدر عنها شاعرية سلمى ، وهو موجود بصورة واضحة في كثير من قصائد الديوان .

اما الشيء الجدير بالاشارة اليه حول هذا الموقف القلق هو قدرة الشاعرة على الباسه للجميع ببراعة .. بل ، والبحث به من وجهات نظر مختلفة واحيانا من وجهات نظر متناقضة ـ لواجزنا لانفسنا التعبير ـ وهذا يبرز في قصيدتي « انا والراهب » و « الصامدون » ، اما في «بلاجذور» فالجميع قلق .. ولكل قلقه الخاص وطريقته في التعبير عنه .

لسوف نعترف مرة اخرى بان الحديث عن « العودة من النبع الحالم» من هذه الزوايا سوف يجرنا بعيدا عما قصدنا اليه ، ولقد قصدنا الى دراسة الديوان من خلال الهزيمة التي تحسها صاحبته بوضوح وعنف .. وقد يكون النظر الى الديوان من هذه الزاوية فقط عملا ضيقا لا مبرر له .. بل وقد يكون ظلما للديوان .. ولكن اذا كان العمل الفني هو ، وقبل كل شيء ، تأثرا ذاتيا اولا ، فان عمل الناقد غير المحترف هو فهم الديوان من ناحية تأثر ذاتي ، ايضا ... بل ان خلع نفسه عن هذا التأثر من الصعوبة بمكان كبير ، ولقد وصلت القضية بعد هذا كله الى ما يلي : ان تكون معظم قصائد الديوان على فلسطين وعن الهزيمة .. وان تكون الشاعرة من فلسطين ومن الهزيمة..وان يكون الناقد غير المحترف من فلسطين ومن الهزيمة ايضا .. فهل من سبيل الى اختيار وسيلة اخرى لدراسة ديوان « العودة من النبع الحالم .. » ؟؟

يتلخص الديوان في الجملتين اللتين وقعتا في اخر القصة الاسبارطية: الايمان بضرورة التضحية .. والحزن من أجلها .. والانسان الجدير بهاتين الحاستين معا هو النمط الذي تمثله الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي : هو الانسان الذي فقد ارضه وقدره معا ، والذي جرته المعركة الى خارجها وصاحت في وجهه : انت لاجيء ! هو الانسان الذي يدرك تماما كم هو في حاجة للتضحية الكبيرة ، ولكنه ـ ايضا الانسان الذي تعلم كيف يحزن بعمق وبانسانية ، لذلك فهو حينما يقدم هذه التضحية لا يفعل ذلك خلال نشوة لحظة حماس سطحية ، لحظة حماس تصل الى الكف لتجعله يصفق لا الى القلب لتجعله يحس .. بل انه يقدم فداءه الكبير وهو يعرف تماما انه سوف يحزن من اجله ، وان اعماقه الانسانية سوف تبكي بنفس القدر الذي ستفرح به للنصر ..

وهكذا فان معنى التضحية يصل الى مستوى يختلف تماما عما عرفناه ، يصل الى مستوى الاقتناع الوجداني العميق الجدير بانسان يحمل عبء قضية الجيل :

انا ادري انهم ماتوا « ليحيا الوطن »
وطن القتلى ، وحقل الدم هذا الوطـن
انا ادري انها «الحرية الحمراء» هذا الثمن
الرائع ، المغموس بالاهات ، هذا الثمـن
انا ادري ! انما الحزن باعماق فؤادي ليس يدري
انا ابكي كل عين فقـدت ضـوء الحيـاه
كل روح سال من بـين الشفاه ! (١)

ان المعاني المتداولة التي تطفو فوق المفهوم الحقيقي للتضحيـة تقف عارية هنا ، بكل ما في طاقتها ان تتعرى ، لتكشف عن اعماقها الخاصة ، حينما ننشد كل صباح « نموت ليحيا الوطن » نمر مرور العابر بالثـمن العظيم الذي تستلزمه هذه الحياة ، ولكن « حياة الوطن » هنا تكشـف عن نفسها بقسوة وعظمة ، وتأخذ مكانها الملائم في الجرح الانساني العميق، انها تترجم الفهم الحقيقي للتضحية ، التي تستلزم الاقتناع الحزين ، ولكن الضروري :

هكذا ماتوا .. ويمضي غيرهم نحو المصير
قدر محتومة رؤياه يا جيل العطاء !
رعشـة محمومـة تجتـاح قلبـي وتثـير
دمعة الحزن بعيني .. ووميض الكبرياء ..! (٢)

الا ان قصة الشعر عند الشاعرة سلمى ليست هنا فحسب ، بل قـد تكون القصائد التي يحملها (العودة من النبع الحالم) مجرد جزء مـن القصة كلها .. القصة التي بدأت منذ انزرع اول مسمار في جسـد القضية ، والتي لم تنته الى هذا اليوم .. والحقيقة ان تصنيف شعـر سلمى حسب الزمن ليس عملا سهلا وفي نفس الوقت ليس عملا هاما بل انه لا يقل صعوبة عن تقسيم القضية ذاتها الى مراحل .. الا ان الشيء البارز في الموضوع ان الشاعرة كانت شاهدة في القضية ، وكفنانة نستطيع ان نقول انها كانت تجربتها الاساسية ، ولو حاولنا الان ان نضـع الاسس الثلاثة للامح الشعر عندها فنحن لا نقصد الى اي تقسيم زمني او موضوعي ، ولكنا نقصد الى ابراز هذه الملامح والتي ربما كانت موجودة في القصيدة الواحدة وجنبا الى جنب .. فالشاعرة !

١ ـ عاشت الحياة العادية مع الناس العاديين في فلسطين قبل النكبة..

٢ ـ وعاشت سنوات الضمير المعذب والشعور بالذنب والفترة التي اصطلح المناضلون على تسميتها بفترة العويل .

٣ ـ وعاشت في لحظات الانبعاث الجديدة التي زرعت في نفسيتها الشعور بالمسؤولية والرسالة ..

وتكون ـ من كل هذا ـ الموقف الذي نستطيع ان ندرس شعر سلمـى كله تحت خطه العريض ، والذي نسميه : تقديم التضحية مع معرفـة مقدار الحزن الحقيقي الجدير بها .. ولسوف يبقى هذا الخط واضحا في كل القصائد بصورة لا تدعو الى التحير .

وهكذا فان نظرية الناقد « ادموند ولسون » موجودة هنا ـ ولكـن بصورة عجيبة ـ نظرية القوس والجرح كما اراد ان يسميها ، واذا كان القوس (اي القدرة على العطاء) سبب النكبة التي مرت بها الشاعرة ، فمن الغريب ان يكون الجرح (اي الضعف) هو نفس القوس هـذا ، فالشاعرة نتاج للنكبة ، او ـ فلنقلها كما تريدها هي ـ نتاج للهزيمة .. وهذه هي نقطة ضعفها الاساسية ، عقدتها النفسية الخاصة (الجـرح في رأي نظرية ولسون) كونها تعيش بين جدران هذه الهزيمة بالجدارة التي تليق بحساسية فنان مسؤول .. وادى هذا الجرح بالذات الى ان يكون عطاؤها (القوس في نظرية ولسون) مجرد نتاج لشعورها بالذنب، بالجرح ، وبالمسؤولية .

تبدو القضية متشابكة ـ وهي كذلك فعلا ، وهذا هو السبب في كون (العطاء والضعف) موجودين في معظم قصائد سلمى ، وجنبا الـى جنب:

نحن من جيل اليتامى .. نحن من جيل القلوب الضائعة ..
امنا قد كونتنا من جحيم الامس ، من لوعتـه ..
من تباريـح قـرون هاجعـه .
فاذا ما ولدتنا فوق جفن الفجر ، فـي روعتـه ،
وتفتحنا وقد أعشى مآقينـا السنا ...
نحن لم نفتر .. لم نهتف هي الدنيا لنـا ..
حلوة ، غـراء ، نشـوى ، رائعـه ..
بـل عرفنـا حظنـا ..
ورمينا العمر في ميعته
بين فكـي الحياة الجائعة (٣)

ـ ١ ـ

الواقع ان كل شيء كان يبدو عاديا في فلسطين ، وكانت الشاعرة تعيش على شفا الهزيمة دون ان تحس ذلك جليا ـ كالجميع ـ وهـذا هو السبب في ان اللطمة انتجت عويلا لا تنظيما ، مجرد تصور كيف كانت تجري الحياة بهدوء وكيف هي الان بالنسبة للاجيء يلقي الظلال علـى الصورة ويجعلها تبدو كئيبة باكية :

.... وفريق يزرع الخيرات فيها ، وفريق
يقطف الخيرات والازهار منها والاغاني
كان بعض منهم يحتال في جني لماها ..
... بقوى الانسان .. كانوا بشرا كالاخريـن
بشرا في ضعفهم ، في عزمهم ، في مبتغاهم
في افانـين الاماني .. وتباريح الحنين (٤) ..

ان الابيات هذه تلقي القضية التي القاها (جورج اورول) بسؤالـه في قصته « ١٩٨٤ » : « اننا نعرف كيف ولكنا لا نعرف لماذا ؟ » تلقي هذه القضية بصورة اشد عنفا وانسانية : « كانوا بشرا كالاخرين .. » وهذا شيء يدفع للاسى ، ويدفع للسؤال نفسه : كانوا كالاخرين .. اذن لماذا يتفردون بالمأساة ، كل شيء كان يجري بطمأنينة ، والشاعرة كانـت ترى ذلك كل يوم ، ولا تستطيع ان تنساه :

كم توادنا صغارا .. وتسابقنا مع النجم القريب ..
وشردنا في الذرى الخضراء في المرج الخصيـب
(لـم نـدرك كم كـان خصيب)
وجزعنا لانفلات الشمس خلف المنحنى
قبل ان نفرغ مـن اقوالنا
بضميري عبق من ورق التين الذي ظللنـا ..

١ ـ مرثية الشهداء .
٢ ـ مرثية الشهداء
٣ ـ العودة من النبع الحالم ،
٤ ـ مرثية الشـهداء
٥ ـ بـلا جـذور

كنت دنيا عنفوان .. الخ (٥)

رنة الاسى لا تغادر الذكرى ، والاسى هذا لا يفتش عن كلمة من صفيح يقرع بها الاسماع لتصفق الاكف ... بل يجري فوق الذكريات الصغيرة والاشياء التي لا تنسى بكل بساطة وعادية .. انه لا يحتاج لعملية التفتيش والافتعال ، لانه موجود اصلا بكل اصالته ووضوحه وصدقه .

- ٢ -

وتحدث الهزيمة فجأة .. والفلسطينيون النازحون عبر الحدود يستبدلون بأسمائهم كلمة « لاجئين » ، يبدو الحدث سريعا وصاعقا ، وتعبر عنه الشاعرة بصورة سريعة وصاعقة كلما تعرضت له :

وسألت البر والبحر عليهم ..
وشحوب الفجر والليل الحزين ..
فهدتني نجمة مطفأة العين اليهم ..
وبقايا العوسج المحمول من وديانهم
يوم خافوا الموت في اوطانهم
كي يعيشوا .. لاجئين .. (٦)

القضية هي قضية ضمير متأزم ، شعور بالذنب ، بالجرح ، لذلك فالقسوة لا حد لها :

.. نحن هذا كله ..
كلمة مبحوحة الجرس ، نشاز جمعتنا :
« لاجئين ! » (٧)

اتكون الصدفة وحدها هي التي تجر سلمى الى تركيز فكرة اللجوء والتشردفي كلمات قليلة كلما تعرضت للحظات الهزيمة والضياع ؟ ام تراها غير قادرة على تفصيل هذه اللحظات التي تحسها هي - فعلا - بصورة سريعة وصاعقة :

آه ماذا ؟ عازف عني شرود النظرات
فارغ الصبر ؟ ترى لست ابن عمي يا حسيب ؟
قال لي دون اكتراث ، وتوارى : « بل غريب » (٨)

ولكن الموقف ليس فقط موقف مفاجأة وخذلان ، بل شعور قاس، بالقلق والتمزق والخسارة .. وفي احيان كثيرة ، شعور بالذنب ، وكل هذا تعبر عنه الشاعرة بقسوة كانما هي تدين الجيل كله :

.. فالشفاه الصفر لا تلثم اطفالا عراة ..
ولدوا دون جذور ، او غد ، من شهوة لاحب فيها .. (٩)

اليأس لا حد له .. هكذا كانت ملامح فترة الويل التي اعقبت التشرد مباشرة .. كون الانسان بلا جذور تشده الى الارض وبلا طموح يشده الى المستقبل يجعله ضائعا عن كل شيء .. حتى عن مثله العليا :

وعلا صوت المنادي للصلاه ..
قلب جدي غافل .. لن يسمعه !

- ٣ -

ولكن الانسان الذي يشعر بالذنب يشعر ايضا بالمسؤولية .. وهكذا تصل الشاعرة الى الايمان بدورها دون ان تستطيع التجرد من لحظات الالم الاسود التي مرت بشعبها .. وهي حينما ترتفع بنفسها الى مستوى الرائد انما تفعل ذلك وهي على يقين بان التضحية التي سوف تقدمها جديرة بالحزن ، وضرورية ، كما هو ضروري،لذلكفان التضحيةهذه تصل الى مستوى انساني رفيع وعميق ويحتوي على كافة عناصر عافيتهواصالته:

.. فاذروا الورود البيض يا اباءنا .. فوق الثرى ..

فالارض لا تحيا اذا لم يشرق الموت الابي على الجباه .. (١٠)

وتبدو الرحلة الطويلة في الشوك ذات جدوى .. الجروح لم تلتئم .. ولكن الطريق يطلب المزيد :

سوف نعطي العيش ان ارهقنا صدرا رحيب
ونغني لبلاياه .. ونرعاه باحساس وعين ..
ونعري قلبنا السمح الخصيب ..
لمدى تغرز في الاضلاع .. في العمر الرتيب
ليس هذا العيش عنا بالغريب ..
قد صحونا .. لن يشع الحلم فينا مرتين !! (١١)

ان الروح الاساسية لديوان العودة من النبع الحالم تتميز بهذه المسؤولية الواعية .. لذلك فحينما تصف الشاعرة الموت في قصيدة الشهيد المهجور بانه « السارق العطر » نفهم مرادها تماما .. ونعرف كم تحس بالمسؤولية احساسا واعيا .. يعتمد فهم عنصر الحزن في التضحية واهميته كي تصل هذه التضحية الى مفهومها الانساني الحقيقي .. ذلك لان :

« الوجد لم يغلنا .. وحزننا حزن معافى وقرير ..
والف نجم شع في قرارة الضمير
يقول لي غدا : حزنت ، انما لك العزاء
زرع ابيك انت بالهوى سقيته وسوف يأكلون ... » (١٢)

كويت — غسان كنفاني

٥،٦،٧،٨،٩ : بلا جذور

١٠ - الورد والعقيق .
١١ - العودة من النبع الحالم
١٢ - منذورون

صدر حديثا

قرارة الموجة
شعر نازك الملائكة

وحدي مع الايام
شعر - فدوى طوقان

وجدتها
شعر - فدوى طوقان

الحب والنفس
قصص - عبد السلام العجيلي

العودة من النبع الحالم
شعر - سلمى الخضراء الجيوسي

منشورات دار الاداب - بيروت